أثر دلالات السياق في توجيه الاستعارة

أ.م.د. عدي خالد محمود البدرانيّ
كليّة العلوم الإسلاميّة -جامعة الفلوجة

استلم: ٢٠١٨/٣/٧ النشـــر: ٢ / ١٢ / ٢٠١٨

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تتبّع تأويلات السياق عند المتلقّي، وما يمكن أنْ يحمله على توجيه الاستعارة؛ بوساطة تأمّل طرفي علاقة المشابهة اللذين تقوم عليهما الاستعارة.

وأوّل ما يطالعنا في هذه الدراسة أنّ اللفظة التي جرت فيها الاستعارة ربّما تحتمل أكثر من توجيه، ولكن من جهات مختلفة: منها ما افترضناه من تبادل طرفي التشبيه الذي يقضي بمغايرة الاستعارة التصريحيّة إلى مكنيّة وبالعكس. ومنها ما يكون للفظة أثر في المغايرة؛ وتحديدًا عندما تحتمل أكثر من دلالة داخل السياق، ممّا يتسبّب في مغايرة الاستعارة من الترشيح إلى التجريد، وبالعكس. وفي تركيبي الحالتين تجري استعارتان في موطن واحد.

وقد يتغير موطن الاستعارة بتغيير توجيهها، كما في حال تعدّد دلالتها قبل دخولها في سياق محدّد، ومن ذلك بنية الاستعارة التبعيّة. وكذلك الحال في بعض التراكيب التي تؤثّر دلالاتها في توجيه الاستعارة، كما في إسناد "المضاف والمضاف إليه". وفي تركيبي الحالتين تجري استعارتان في موطنين متغايرين.

Abstract:

The study aims to follow the contextual interpretations of the recipient, and what he can carry on directing the metaphor; mediated by the two sides of the similar relationship on which the metaphor is based.

The first thing that comes to mind in this study is that the metaphor in which the metaphor took place may have more than one direction, but with different considerations: one of which is what we assumed from the exchange of the two ends of the metaphor, which is contrary to the metaphorical metaphor to the machine and vice versa. Especially when it has more than one connotation within the context, which leads to different metaphor from nomination to abstraction, and vice versa. In both cases, they are borrowed in one home.

The metaphorical locality may be changed by changing its orientation, as is the case with multiple meanings before entering into a specific context, including the metaphorical metaphor. As well as in some structures, whose implications influence the direction of metaphor, as in attribution of "additive and additive". In both cases, they are borrowed in two heterogeneous homes.

المقدّمة

ربّما لا نجانب الصواب إذا قرّرنا أنّ علم البيان يعلو هرم البلاغة العربيّة، وأنّ فنّ الاستعارة يحتل ذروته على الإطلاق، الأمر الذي يجعلنا نتوقّف كثيرًا في تأمّلها، وإدراك ماهيّتها، ولاسيّما داخل سياقها؛ لأنّنا نرى أنّ الاستعارة إنّما يتوقف توجيهها على دلالات السياق الذي ترد فيه.

ولمّا كان للسياق أكثر من دلالة كان للاستعارة أكثر من توجيه، ولكنّ البلاغيين بذلوا جهودًا في التأصيل التنظيريّ للفنون البلاغية على حساب دراسة توجيهات هذه الفنون داخل السياق الذي ترد فيه، بل إنّ هذه التوجيهات تكاد تغيب تمامًا عن مؤلفاتهم - رحمهم الله - إلا ما ندر من جهود المفسرين، وشرّاح دواوين الشعر.

ولهذا وجدنا ضرورة التعامل مع الاستعارات داخل سياقاتها، وما يمكن أن تفرزه هذه السياقات من توجيهات، الأمر الذي نتبعناه وتأمّلناه، فوجدناه على نوعين:

ما تتعدّد توجيهاته داخل السياق:

- منه ما يتمثّل في بنية الاستعارات المكنيّة التي افترضنا إمكانيّة توجيهها في ضمن حقل الاستعارة التصريحيّة، فتجري في تركيباتها إحدى الاستعارتين في موطن واحد.

- منه ما كانت دلالة اللفظة التي جرت فيها الاستعارة تحتمل أكثر من توجيه، ممّا يتسبّب في توجه مغاير للاستعارة داخل السياق.

ما تتحدَد توجيهاته داخل السياق:

- منه ما كان يحتمل أكثر من دلالة قبل دخوله في سياق محدّد، كما في بنية الاستعارة التبعيّة التي يفترض أنْ تجري في تركيباتها استعارتان في موطنين متغايرين.

- منه ما يتوقف توجيه الاستعارة فيها على تأويل تركيباته، كما في إسناد "المضاف والمضاف إليه".

ولتحقيق هذه الغاية وجدنا أن نعيد قراءة جملة من الشواهد البلاغيّة قراءة سياقيّة على وفق ما افترضناه. وآثرنا أنْ تكون هذه الشواهد ممّا شاع عند البلاغيين، وتحديدًا ممّا يمكن أنْ يحتمل توجيهات متغايرة؛ بغية مخاطبة توجيهات القدماء لهذه الاستعارات من جهة، وإمكانية إعمام النتائج، التي يمكن أنْ يتوصّل إليها البحث من جهة أخرى.

المبحث الأول

التوجيهات التي لا تغيّر مواطن الاستعارات

تقوم الاستعارة على علاقة المشابهة، والتشبيه فنّ تعبيريّ متأصّل في النفس البشريّة عمومًا؛ فهو (يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه)(١)، أمّا الاستعارة فهي (أنْ تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدّعيًا دخول المشبّه في جنس المشبّه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يختصّ المشبّه به)(٢). ومن هنا كان للجدل الذهني ضرورة في عملية فهم العلاقية بين المشبّه والمشبّه به في الصورة الاستعاريّة(٣).

وما دام الكلام يدور في فلك ذكر أحد طرفي التشبيه وحذف الآخر فقد تبدو علاقة المشابهة، ولكن يُحذف المشبّه، ويُصرّح بلفظ المشبّه به(٤)، فتكون استعارة تصريحيّة. و(قد يضمر التشبيه في النفس فلا يُصرّح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبّه، ويدل بأنّ للمشبّه أمرًا مختصًّا بالمشبّه به، من غير أنْ يكون هناك أمر ثابت - حسًا أو عقلا - أجرى عليه اسم ذلك الأمر، فيسمّى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيًّا عنها)(٥).

ولكن ربّما توسّعت دلالات السياق ليحتمل أكثر من توجيه، وتحديدًا في رتبتي المشبه والمشبّه به، الأمر الذي يمكن بوساطته حدوث المغايرة في توجهي الاستعارتين؛ وذلك بمغايرة طرفي التشبيه، فالمشبه يكون مشبّهًا به، والمشبه به يكون مشبّهًا، شريطة ألّا تكون المغايرة على سبيل التشبيه المقلوب(٦)، فضلا عن المغايرة في توجيه قرينة الاستعارة؛ فما كانت في الاستعارة المكنيّة لازمة من لوازم المشبه به المحذوف ستكون قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي في الاستعارة التصريحيّة، الأمر الذي لم نجد له أساسًا في البلاغة العربيّة على حدّ علمنا.

والفرق بين التشبيه المقلوب وما افترضناه في المغايرة بين المشبّه والمشبّه به أنّ وجه الشبه في التشبيهين المقلوب وغير المقلوب واحد، بمعنى لو شبّهنا الوجه بالقمر فيمكن أن يكون وجه الشبه الجمال، وإذا زعمنا أنّ الوجه أجمل، فقلبنا التشبيه فسيكون وجه الشبه الجمال أيضًا. بيد أنّ هذا الزعم لا يتوفّر في المغايرة التي افترضناها بين المشبّه والمشبّه به؛ لأنّ وجه الشبه سيتغير أصلا، فإذا شبّهنا الرجل بالأسد فسيكون وجه الشبه الشجاعة، ولكن إذا شبهنا الأسد بالرجل فسيكون وجه الشبه الخصائص الانسانيّة كالعقل والحكمة مثلا.

فإذا قال أحدنا: (فلان يقتطف الموت) سينصرف توجيهنا إلى الاستعارة المكنيّة، إذ تشبيه الموت بالثمار، وحذف الثمار، والإشارة إليها بلازمة من لوازمها، وهي الاقتطاف. ولكن لو افترضنا رجلا مريضًا بمرض "السكري" الذي يمنعه من تناول أنواعًا مخصوصة من الثمار، وإذا ما افترضنا إصراره على تناولها، مع علمه أنّها ربّما تكون سبب موته، فعندئذٍ سيكون توجيهنا معاكسًا تمامًا لما مرّ، فسيكون لزامًا تشبيه هذه الثمار بالموت، وتسميتها به، معلوم أنّ من معاني الاستعارة (تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه)(٧)، ممّا يعني جريان

الاستعارة التصريحيّة في لفظة "الموت"، بعد أنْ جرت فيها الاستعارة المكنيّة، على وفق التوجيه الأول؛ ففي الاستعارة التصريحية مراعاة لسبب الموت، وفي المكنيّة مراعاة لكيفيّة حدوثه.

والحق أنّ هذين التوجيهين يمثلان جوهر ما تقوم عليه دراستنا في هذا المبحث؛ إذ لم يتعرّف الدارس للبلاغة العربيّة - بشكل أمثل - على ثقافة توجيهي الاستعارتين التصريحية والمكنيّة في لفظ واحد من التركيب، الأمر الذي نذهب إليه، ونطمح إلى إثباته.

ومن أجل ذلك وقفت دراستنا على جملة من الشواهد التي تكرّرت في المؤلفات البلاغة، وتعدّدت فيها التوجيهات التي نراها لم تستوف معطيات السياق، ومنها قول أبي ذُؤيب الهذلي (ت ٢٧هـ)[٨]:

وَإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَت أَظفارَها ... أَلفَيت كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنفَعُ

شاع هذا البيت الجميل في المصنفات البلاغيّة، وتحديدًا في باب الاستعارة المكنيّة؛ إذ (شبّه المنيّة بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة)[٩]، وحذف السبع، وأشار إليه بلازمة من لوازمه، وهي الأظفار[١٠]، فإذا نزلت المنيّة بالإنسان (صحّ أن يقال: نشبت فيه، وصحّ أن يستعار لها اسم الأظفار؛ لأنّ النشوب قد يكون بالظفر)[١١]. وقد يكون سبب شيوع هذا التوجيه عند البلاغيين أنّ هذا البيت قيل في مقام يحاكيه، ولا بدّ (لفهم نص معين أن يعاد تصور المقام الأصيل، وكلما كان التصور دقيقًا، كان إدراك النصّ أيسر، وفهم علاقته متاحًا للدارس أو للناقد)[١٢]. وربّما يكون وراء تعزيز هذا التوجيه أنّ (سرّ بلاغة الاستعارة المكنيّة ما فيها من تشخيص وهبة حياة؛ وذلك أنّ كميّة الخيال فيها أكبر من كميّته في الاستعارة التصريحيّة، من حيث إنّ المكنيّة صورة خياليّة أصليّة ملحقة بها صورة خياليّة فرعيّة هي قرينتها التخييليّة)[١٣].

ولكن إذا صرفنا النظر عن القصيدة - أو المناسبة- التي ورد فيها البيت، وسلّطنا الضوء على دلالات البيت نفسه فيمكن تأويله بشكل مغاير تمامًا، وتحديدًا في قلب طرفي التشبيه، ليس على سبيل التشبيه المقلوب، وإنّما لتغيير رتبتيهما أصلا، بمعنى تشبيه الوحش بالمنيّة، وحذف المشبه، والتصريح بالمشبّه به، فضلا عن توجيه الأظفار بأنّها قرينة تؤكد توجيه الاستعارة التصريحيّة. وللوقوف على الاحتمالين نفترض صورتين لرجلين: الأول عجوز في أرذل العمر، يترقّب الموت في أيّ وقت، والآخر شاب أعزل يواجه وحشًا يترقّب أن يجهز عليه في أيّ وقت، ممّا يعني أنّ الرجل الأول سيشبّه الموتَ بالوحش، بجامع بشاعتهما، وسيشبّه الرجلُ الآخر الوحشَ بالموت، بجامع الهلاك المرتقب، بمعنى أنّ الاحتمالين واردان على حدٍ سواء؛ لأنّ الصورة يمكن أن توظف للدلالة على كلّ ما له علاقة بالتعبير[١٤]، ولا سيّما من جهة المتلقي، على افتراض أنّ عملية التلقي إنّ عملية التلقي (ليست متعة جماليّة خالصة فحسب، ولكنّها عمليّة مشاركة وجوديّة تقوم على الحوار بين المبدع والمتلقي، تفتح أمامنا آفاقًا رحبة في فهم أنفسنا بجانب فهمنا للنصّ المبدَع)[١٥].

وبهذا توجّه لفظة "المنيّة" تارة على أنّها استعارة مكنيّة؛ بوصفها مشبهًا، الأمر الذي ذهب إليه البلاغيون العرب، وتارة توجّه على أنّها استعارة تصريحيّة؛ بوصفها مشبهًا به، كما افترضنا. ومن هنا يمكن أن نعدّ هذا

البيت من أجمل الاستعارات، لا كما يرى ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) أنّه (ليس من أحسن الاستعارات، ولا أقبحها) (١٦). وثمّة من يرى أنّ الشاعر إنّما (يصور المنيّة بصورة السبع، ويخترع لوازمه لها، فاخترع لها مثل صورة الأظفار، ثمّ أطلق على هذه الصورة لفظ الأظفار، فتكون الأظفار عنده تصريحيّة تخييليّة) (١٧)، وفي تقديرنا أنّه توجيه غاية في التكلّف؛ لعدم إمكانيّة توجيه المشبّه مع "اختراع لوازم له" في الوقت الذي يمكن أنْ تكون هذه اللوازم ممّا يختصّ بالمشبّه به، فتكون بذلك من قبيل الاستعارة المكنيّة -كما ذكرنا - لا التصريحيّة. ومن هذه المغايرات ما يمكن توجيهه في قول المتنبّي (ت٣٥٤هـ)(١٨):

فلم أرَ بدرًا ضاحكًا قبْل وَجْهِهَا وَلَمْ تَرَ قبْـلي ميّـتًا يَتكلّمُ

فلو توقفنا عند قوله" فلم أرّ بدرًا ضاحكًا" لذهبنا جميعًا إلى أنّها استعارة مكنيّة، أي تشبيه البدر بالإنسان، وحذف الإنسان "أي المشبّه به" والإشارة إليه بلازمة من لوازمه، وهي الضحك.

على أنّه بالإمكان توجه الاستعارة على أنّها تصريحيّة، أي تشبيه الوجه - بوصفه ضاحكًا - بالبدر، وحذف الوجه "أي المشبّه" والتصريح بالمشبّه به. ولكنّ هذا التوجيه يكون بعيدًا، قياسًا بما تقدّم، ولاسيما إذا توقفنا عند قوله فلم أرّ بدرًا ضاحكًا" كما قلنا. وسرعان ما تنقلب الموازين بمجرد قوله "قبل وجهها"؛ لأنّ ذكر الوجه يستحضر في مخيلتنا توجيه الاستعارة التصريحيّة، ونكران توجيه الاستعارة المكنيّة، وهذا ما ذهب إليه جلُّ الباحثين. وفي أسلوب مقارب قال المتنبّي أيضًا(١٩):

فَلَم أَرَ قبْلي مَنْ مشى البَحْرُ نَحوهُ وَلا رَجُلا قَامَتْ تُعانقُهُ الأُسْدُ

من الواضح أنّ الاستعارة جرتْ في لفظة "البحر" بوصفه مشبّها، إذ شاع في ثقافة العرب تشبيه الرجل الكريم بالبحر، فحذف المشبّه أي الرجل الكريم، وصُرّح بالمشبّه به، أي البحر. ومن الواضح أيضًا جريان الاستعارة في لفظ "الأسد"، إذ تشبيه الرجال الشجعان بالأسد، وحذف الرجال، والتصريح بالأسد، فتشكّلت الاستعارة التصريحيّة، في الحالين(٢٠). بيد أنّ ثمّة توجيهًا آخر يتمثّل في جعل كلٍّ من لفظتي "البحر، والأسد" مشبّهًا بالإنسان، فحذف الإنسان وأشير إليه بلازمة من لوازمه، وهي: "المشي" في استعارة، و"المعانقة" في استعارة الأسد، فتشكّلت استعارة مكنيّة في كلا الحالين. وربّما لا تحقّق هذه الصور إعجاب البلاغيين؛ لأنها تقوم على المبالغة والغلو(٢١).

إذا تأملنا هذه المبالغة، ووازنّا بين التوجيهين فهما واردان على حدّ سواء، ولكنّ معاني المديح التي تجتاح نصّ المتنبّي - الذي ورد فيه البيت - تجعلنا نرجّح توجيه الاستعارتين التصريحيّتين. ولو شئنا الدقّة في الموازنة بين التوجيهين نقول: إذا نظرنا إلى البيت بمعزلٍ عن النصّ الشعريّ الذي ورد فيه فيكون أقرب لتوجيه الاستعارة المكنيّة، وإذا نظرنا إليه بوصفه جزءًا لا يتجزّأ من نصّه فيكون أقرب لتوجيه لاستعارة التصريحيّة. وقال الحجّاج بن يوسف الثقفي (ت٩٥هـ): (إنّي لأرى رؤوسًا أينعتْ، وحان قطافها) (٢٢).

لو جرّدنا هذه المقولة عن مناسبتها، وافترضنا الحجّاج يقف في مزرعة للبصل - مثلا- لجاز أن تكون استعارة تصريحيّة؛ إذ تشبيه ثمار البصل بالرؤوس وحذف المشبّه، والتصريح بالمشبّه به. بيد أنّ هذا التوجيه - لقول الحجّاج - يذوب تمامًا أمام القرينة الحاليّة، المتمثّلة في المناسبة المعروفة للمقولة؛ فمن المعلوم أنّها قيلتْ في جمع من أهل العراق، يتوعدهم الحجّاج بقطع رؤوسهم(٢٣)، بمعنى تشبيه الرؤوس بالثمار، وحذف المشبّه به والإشارة إليه بلازمتين من لوازمه، وهما "أينعت، وقطافها".

ومن المناسب هنا أن نتوقف عند وجه الشبه بين طرفي التشبيه " أي الرؤوس، والثمار" ويمكن تقديره بـ "النمو"، بمعنى أنّ التمرد أخذ ينمو في نفوسهم - بحسب ما يرى الحجّاج - إلى أن وصل إلى ذروته، فوجب إيقاف هذا النمو بقطع الرؤوس.

وممّا يمكن الاختلاف في توجيهه قولنا على سبيل المثال: رأيت في سوح الوغى سيفًا يشهد أوزارها. ففي لفظة الـ "سيف" جرت استعارة، يمكن حملها على وجهين: فإذا قصدنا بالسيف رجلا تكون الاستعارة تصريحيّة، بمعنى تشبيه الرجل بالسيف، وحذف الرجل، والتصريح بالمشبه به السيف.

وإذا قصدنا السيف نفسه فستكون الاستعارة مكنيّة، بمعنى تشبيه السيف بالرجل، وحذف الرجل والإشارة إليه بلازمة من لوازمه، وهي الشهادة. أمّا إذا لم يتبين القصد من لفظة السيف فيمكن أن يتّم المعنيان بعضهما؛ فالأول دلالته مسموعة، أي الشهادة، والآخر دلالته مرئيّة، أي مشهد السيف. وليس بعيدًا عن ذلك قول أبي تمام(ت٢٣١هـ)(٢٤):

السَيفُ أَصْدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

ذهب كثير من البلاغيين ومتذوقو الأدب إلى أنّ الاستعارة المكنيّة قد جرت في لفظة "السيف"، بمعنى تشبيه السيف بالرجل، وحذف الرجل، والإشارة إلية بلازمة من لوازمه، وهي الصدق، الأمر الذي نؤيده، شريطة ألّا يكون التوجيه الوحيد لهذا التوظيف الفنّي الجميل؛ إذ يمكن أنْ تجري الاستعارة التصريحيّة في لفظة السيف، على وفق ما افترضنا، وتحديدًا في مغايرة طرفي التشبيه، بمعنى تشبيه الممدوح "المعتصم" بالسيف - على شاكلة تسمية "سيف الدولة الحمداني" - وحذف ذكر المعتصم، والتصريح بذكر السيف، فتشكّلت الاستعارة التصريحيّة.

وإذا تأمّلنا التوجيهين نجد أنّ الأول يدلّ على مديح الجند، الذين يحملون السيوف، والآخر يدلّ على مديح قائد الجند، ممّا يعني أنّ أحدهما يتّم الآخر، بل لا سبيل لتجاهل أيٍّ منهما. ومن هنا يتبيّن جليًّا محدوديّة اهتمام الكثيرين، ممّن لا يغوصون في كنه التجربة الشعريّة، وإنما يكتفون بمرور عابر على المظهر الخارجي لها(٢٥).

وجدير بالذكر أنّ المغايرة هنا بين طرفي التشبيه - على وفق ما افترضناه - لا يغيّر نوع الاستعارة من المكنيّة إلى التصريحيّة، أو بالعكس فحسب، وإنّما يغيّر الاستعارة من مرشحة(٢٦) إلى مجرّدة(٢٧) وبالعكس؛ فالمرشحة أن يشتمل السياق على ملائم للمشبّه به، والمجرّدة أن يشتمل السياق على ملائم للمشبّه(٢٨)، وبعد مغايرة طرفي

التشبيه سيتحول ملائم المشبّه للمشبّه به، وملائم المشبّه به للمشبّه، بمعنى أنّ في قوله "في حدّه" تجريدًا في توجيه الاستعارة المكنيّة، وترشيحًا في توجيه التصريحيّة.

وقال أبو تمام أيضًا(٢٩):

تَرُوْحُ عَلينا كُلّ يَومٍ وتَغتدي خطوبٌ كأنَّ الدَهْرَ مِنْهُنّ يُصْرَعُ

ذكر الآمدي هذا البيت – بهذه الرواية - وقرّر أنّه من قبيح استعارات أبي تمام(٣٠)، وربّما كانت المبالغة الخارجة عن المألوف سببًا لما ذهب إليه، الأمر الذي نوافقه تمامًا؛ لقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: (لا يقولنّ أحدُكم: يا خيبة الدهر؛ فإنّ الدهر هو الله) (٣١).

أمّا إذا كانت الغاية الجماليّة سببًا لما ذهب إليه الآمدي فلا نرى لها مسوّغًا فنيًّا؛ لذكر الأداة " كأنّ" التي تجعله داخل حدود فنّ التشبيه. بمعنى عدم إمكانيّة توجيهه من الاستعارة، إلا إذا حذفت الأداة لفظًا وتقديرًا، كما ذكره المرزباني (ت٣٨٤هـ) (٣٢) برواية:

تَرُوْحُ عَلينا كُلّ يَومٍ وتَغتدي خطوبٌ يكادُ الدَهْرُ مِنْهُنّ يُصْرَعُ

والفرق بين التعبيرين يجعلنا ندرك أنّ تركيب الاستعارة ينسينا التشبيه، ويحملنا عمدًا على تخيّل صورة جديدة(٣٣)؛ فعندما نقرّر أنّ الدهر لا يصرعُ نكون قد شرعنا في تأمّل أحدى الاستعارتين، وربّما تكون المكنيّة الأقرب إلى خواطرنا، بمعنى تشبيه الدهر بالإنسان، وحذف الإنسان، والإشارة إليه بلازمة من لوازمه، وهي مرض الصرع(٣٤). ولكنْ ثمّة توجيه آخر يمكن أن يحتمله السياق، يتمثّل في تشبيه الرجل بالدهر – ولاسيّما إذا كان كبيرًا في السنّ - وحذف الرجل والتصريح بالدهر، فتتشكل بذلك الاستعارة التصريحيّة.

وللترجيح بين التوجيهين نظرنا في وجهي الشبه فيهما، ففي الأول يكون العقل والحكمة، وفي الآخر يكون كبر السنّ، الذي يمكن أن يكنّى بوساطته للحكمة أيضًا. وما دامت الحكمة حاضرة في التوجيهين فإنّ التصويرين الاستعاريين يدوران في فلك واحد، ولكن في الجنوح إلى الخيال تارة، وتحديدًا في صرع الدهر، وإلى الحقيقة تارة أخرى، وتحديدًا في صرع الرجل المسنّ.

وقد لا يختلف توجيه الاستعارة، بين التصريحيّة والمكنيّة، ولكن يختلف توجيهها بين الترشيح والتجريد؛ ولاسيما إذا اتسعت دلالة اللفظ الذي يلائم أحد طرفي التشبيه، فيلائم الآخر، على سبيل المشترك اللفظي(٣٥).

ومن ذلك قولنا – مثلا - في خطيب: (بين فكّيه حسام يكلّمنا). فقد جرت الاستعارة التصريحيّة في لفظة الـ "حسام" بتشبيه اللسان به، وحذف اللسان، والتصريح بالمشبه به. أمّا الفعل " يُكلّمنا" فيمكن أن يكون ملائمًا للمشبّه – أي اللسان – إذا حملناه على معنى " يحدّثنا"، فتكون بذلك الاستعارة تجريديّة. ويمكن حمل الفعل على معنى "يجرّحنا(٣٦)" فيكون ملائمًا للمشبّه به – أي السيف – فتكون الاستعارة مرشّحة.

وليس بعيدًا عن ذلك قول أوس بن حجر(ت نحو ٢ ق هـ) (٣٧):

وإنّي امرؤ أعددْتُ للحرب بعد ما رأيتُ لها نابًا من الشرِّ أعصلا

جرت الاستعارة المكنيّة هنا في لفظة "الحرب"؛ إذ شبّهها بالسبع، وحذف السبع، ورمز إليه بلازمة من لوازمه، وهي الناب. ولكنْ ثمة مناسب للمشبّه تارة، وللمشبّه به تارة أخرى، وتحديدًا في لفظة "أعصل"؛ التي يذكر من معانيها: ما كان هزيل القوام، يابس البدن، وجمعه عُصْلٌ(٣٨)، بمعنى أنّ هذه اللفظة ممّا يلائم المشبّه به السبع، فتكون الاستعارة مرشّحة. وقالوا: (المِعْصَلُ: المتشدّدُ على غريمه)(٣٩)، والغريم يكون في الحرب عادة، بمعنى أنّ لفظة "أعصلا" في البيت يمكن أنْ تكون ممّا يلائم المشبّه، فتكون الاستعارة مجرّدة. وللموازنة بين الدلالتين يمكن أنّ نتأمّل وجه الشبه فيهما، فيدلُّنا التجريد على ضراوة الغريم في نفسه، ويَدلُّنا الترشيح على شكله الهزيل - الذي أخذ منه الجوع مأخذًا - فيدلّ بذلك على ضراوته أيضًا. بمعنى أنّ المعنيين يتّمان بعضهما، فلا سبيل لتجاوز أيٍّ منهما.

ومن أجل الوصول إلى وصف دقيق لما رصدنا في هذا المبحث نقول: إنّ المظهر العام لخيال المبدع هو ذاك الإلهام الذي يعدّ نضجًا مفاجئًا غير متوقّع لكلّ ما قدّمه الشاعر في تجربته الشعريّة من قراءات ومشاهدات وتأمّلات(٤٠)، وذلك بـ (إحداث علاقات جديدة بين الألفاظ، لم تكن موجودة، أو مألوفة من قبل)(٤١). وإذا كان المبدع يتحلّى بكلّ هذه الشموليّة فكيف بالمتلقي؟ الذي ينبغي عليه تأمّل ذلك الإلهام، وما يمكن أن يفرزه من دلالات داخل السياق الذي ورد فيه، سواء قصده الشاعر أم لم يقصده، ولاسيّما في حقول توظيفات الاستعارة؛ لأنّ (الاستعارة مبنيّة على التأويل)(٤٢)، الأمر الذي يثير في نفسه تتبّع هذه العناصر من جهة، وتقدير أوجه الشبه فيها من جهة أخرى. بمعنى أنّ (طبيعة المتلقي حاضرة حضورًا بيّنًا في العمليّة الإبداعيّة، وهذا راجع - بلا شكّ - إلى أنّ المبدع يحاول بقدر ما أوتي من قوة بيانيّة أن ينقل المتلقي إلى الحالة التي يعيشها هو، أو بمعنى آخر يحاول أن ينقله إلى نفس التجربة التي دفعته إلى هذا الإبداع)(٤٣). ومن هنا نرى وجوب شموليّة تأمّلات المتلقّي لكلّ الاحتمالات السياقيّة لتوجيه الاستعارة، الأمر الذي لم نلمسه بشكل واضح في كثير من توجيهات تقسيماتها التي (كانت عناية البلاغيين بها أكثر من عنايتهم بالتذوّق والتحليل الفنّي لصور الاستعارة، ممّا حفّف رواء هذا المبحث لديهم، وصبغه بصبغة منطقيّة جامدة)(٤٤).

المبحث الثاني

التوجيهات التي تغيّر مواطن الاستعارات

قد يختلف موطن الاستعارة باختلاف توجيهها؛ لما في تراكيبها من دلالات سياقيّة، تثري أحيانًا هذه التوجيهات. ومن ذلك الاستعارة المكنيّة، التي تقع في قرينة الاستعارة التبعيّة، و(هي ما يقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال والصفات المشتقّة منها)(٤٥)، فقد شاع عند العرب إمكانيّة اعتماد الاستعارتين، شريطة

أنْ تكون إحداهما قرينة الأخرى، بمعنى إسناد إحداهما للحقيقة، والأخرى للمجاز(٤٦)، ولكنّ جلّ القدماء - إنْ لم يكونوا كلّهم - قد توقّفوا عند هذا الحدّ، ولم يستنطقوا دلالات السياق في ترجيح إحداهما على الأخرى.

للوقوف على هذه المسألة نرى من المناسب أن نستأنس برأي البلاغيين أنفسهم في دلالة اللفظ المفرد بعد دخوله في سياق ما، فقد قرّروا أنّ الدلالات المتعدّدة للفظ المفرد إنّما تزول عنه تمامًا عند دخوله في سياق ما، باستثناء ما يوظفه تركيب السياق نفسه، ولهذا قالوا: إنّ للسياق دلالات مخصوصة، (لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة)(٤٧).

إذا عممنا هذه النظرة على توظيف الاستعارة فنكون قد افترضنا ما ذهب إليه البلاغيون في وقوع الاستعارتين التبعيّة والمكنيّة - التي في قرينتها - قبل دخول جملة الاستعارة في سياق محدّد من جهة، وقبل تأثر دلالتها بقرينة حاليّة من جهة أخرى. أمّا إذا دخلت جملة الاستعارة في سياق محدّد، أو تأثرت دلالتها بقرينة حاليّة فربّما ستذوب إحدى الاستعارتين، وتثبت الأخرى، كما ذابت دلالات اللفظ المفرد، وثبتت له دلالة محدّدة. فمن قبيل دخول جملة الاستعارة في سياق ما قوله تعالى: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)(٤٨) هنا أجمع البلاغيون على توجيه: "واشتعل الرأس شيباً" أنّه (لمّا كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئًا فشيئًا، حتى يحيله إلى غير حالة الأولى، كالنار التي تشتعل في الجسم من الأجسام فتحيله إلى النقصان والاحتراق)(٤٩)، ممّا يعني أنّ في لفظة "اشتعل" استعارة تصريحيّة، تقضي بتشبيه عملية انتشار الشيب في الرأس بعملية الاشتعال(٥٠)، ولمّا كانت هذه الاستعارة جرت في لفظ الفعل فهي استعارة تبعيّة، وقد أقرّ البلاغيون بإمكانيّة أن يكون في قرينتها استعارة مكنيّة، أي أنّه يمكن أن يوجّه النصّ الكريم - بحسب ما يرى بعض البلاغيين - بأنّ سيّدنا زكريّا (شبّه رأسه بالحطب، ثم حذف المشبّه به وهو الحطب، بعد أن كنّى عنه بأهم لوازمه، وهو الاشتعال، الذي أسند إليه المشبّه، وهو الرأس)(٥١).

وهنا نرى أنّ البلاغيين عمومًا توقفوا عند التنظير والتأصيل لفنّ الاستعارة، والانشغال - شبه التام - عن السياق، وما يفرزه من دلالات، يمكن أنْ توجّه صورتي الاستعارتين، أو ترجّح إحداهما على الأخرى. وربّما تشكّل هذه الظاهرة عيبًا واضحًا في منهج البلاغيين. فلو ربطنا احتمالي الاستعارتين بدلالات السياق لبدا لنا أيُّهما أقرب من الأخرى، بل ربّما يكون الاحتمال الآخر غريبًا على السياق، كما في سياق الآية الكريمة؛ إذ قال تعالى على لسان عبده زكريّا (عليه السلام): ربّ إنّي وهن العظم منّي، وهذا المعنى أقرب إلى دلالة الانتشار الكبير للشيب في الرأس، وهي دلالة الاستعارة التصريحيّة التبعيّة، ممّا يعني أنّ دلالة تشبيه الرأس بالحطب غريبة عن السياق جملة وتفصيلا، فيكون الاحتمال الأول هو المراد - والله أعلم - وأنّ الاستعارة المكنيّة لا وجود لها هنا إلا في افتراضات البلاغيين، على مستوى التنظير.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى ما تدلّ عليه الاستعارة التبعيّة، فإنّ وصْف الفعل عندهم (بأنّه مستعار حكمٌ يرجع إلى مصدره الذي اشتقّ منه)(٥٢)، لأنّه جرى في علاقة المشابهة، و(التشبيه في الأفعال والصفات المشتقّة منها لمعاني مصادرها)(٥٣) فحسب.

وذهب بعضهم إلى أنّ قيمة اللفظ الذي جرت فيه التبعيّة (إمّا أنْ تكون في مادة الفعل الدالّة على معناه، وإمّا أنْ تكون في صيغته الدالّة على زمانه)(٥٤)، وبذلك يكون الفاعل - عندهم - خارج حدود الدلالة التي يُنتجها تركيب الاستعارة التبعيّة.

إلا أنّنا لا نرى ذلك على الإطلاق، فقد تكون علاقة المشابهة مشتملة على الفاعل، ممّا يجعل الدلالة لا تقف عند المصدر، الذي جرت بلفظ فعله الاستعارة. ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتْ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلوَاحَ)(٥٥).

يبدو تشبيه هدوء الغضب بالسكوت، فحُذف المشبّه، وصُرّح بالمشبّه به، ممّا شكّل استعارة تصريحيّة، وواضح أنها جرتْ بلفظ الفعل فتكون تبعيّة، يمكن أن يكون في قرينتها مكنيّة، بمعنى تشبيه الغضب بالإنسان، وحذف الإنسان، وأشير إليه بلازمة من لوازمه، وهي السكوت.

وإذا شئنا الترجيح بين الاستعارتين ننظر إلى وجه الشبه في كلّ منهما، والحكم في أيّهما أقرب لمعنى السياق الكريم. ففي الاستعارة التبعية يمكن أن يكون أصل وجه الشبه الصمت، المتوافر في السكوت وفي هدوء سيّدنا موسى (عليه السلام) معًا. وفي الاستعارة المكنيّة يمكن أن يكون وجه الشبه الحكمة والرشد، فهما يتوافران في الإنسان وهدوء الغضب معا. والذي نراه أنّ الاستعارتين تشكلان معنيين متتامّين، فمعنى الاستعارة التبعيّة يعبّر عن مظهر سيدنا موسى (عليه السلام) ومعنى الاستعارة المكنيّة يعبّر عن حكمته التي أسكتتْ غضبه. ومن هنا يمكن القول: إنّ التصوير الاستعاري يتعدّى مفهوم المبالغة - الناتج عن علاقة المشابهة - أو سائر المعاني الظاهرة إلى (معانٍ أخر نتجت من تفاعل الدلالات داخل السياق)(٥٦).

ومن الاستعارات التبعيّة قول دعبل الخزاعي (ت٢٤٦هـ)(٥٧):

لا تَعجَبي يا سَلم مِن رَجُلٍ ضَحِكَ المَشيبُ بِرَأسِهِ فَبَكى

ذهب البلاغيون إلى أنّ الـ "ضحك" هنا بمعنى ظهر(٥٨)، أي تشبيه انتشار الشيب في رأس الشاعر بالضحك، وحذفُ المشبّه، والتصْريحُ بلفظ المشبّه به، فتشكّلت الاستعارة التصريحيّة. وواضح أنّ الاستعارة جرت بلفظ الفعل فتكون تبعيّة، يمكن أنْ تكون في قرينتها مكنيّة، أي تشبيه الشيب بالإنسان، وحَذفُ الإنسان، والإشارة إليه بلازمة من لوازمه، وهي الضحك.

وللترجيح بين الاستعارتين ننظر في وجهي الشبه فيهما، ففي الاستعارة التبعية يكون أصل وجه الشبه البياض، فهو ناجم من غزارة الشيب، وكذلك عن صورة الفم الضاحك. وفي المكنيّة يكون وجه الشبه الحكمة، الدالّة على مفارقة التصابي. والمعنيان مرتبطان بدلالة السياق، من جهة كون أحدهما يفصح عن الآخر؛

فبياض الشيب يفصح عن حكمة الرجل، ونرى المعنيين أقرب ما يكونان من معنيي الكناية[٥٩]؛ ففي الكناية معنى مضمر مقصود، وآخر ظاهر ملفوظ، يدلّ عليه.

غير أنّ بعض المحْدثين يرى أنّ الشاعر شبّه (حدثَ ظهور الشيب في رأسه بحدث ظهور الأسنان الضواحك في الفم، ودلّ على هذا الحدث بشيء من خصائصه وهو حدوث الضحك، واستعمل فعل "ضحك" للدلالة على سبيل الاستعارة المكنيّة)[٦٠]. وفي ذلك خلط واضح بين توجيهي الاستعارتين التصريحيّة والمكنيّة، على وفق ما ذكرنا. ومن الاستعارات التبعيّة قول السريّ الرفّاء (ت٣٦٢هـ) يصف شعره[٦١]:

إذا ما صافحَ الأسماعَ يومًا تبسَّمتِ الضَّمائرُ والقلوبُ

ربّما يكون هذا البيت من أعذب أبيات العرب في توظيف الاستعارات؛ ففي كلّ من فعل الشرط وجوابه استعارة تبعيّة، ولكنّهما غابتا عن اهتمام جلّ الدارسين؛ لأنهم صبّوا اهتمامهم على المكنيتين الكامنتين في قرينتي التبعيتين، إذ تشبيه الشعر والأسماع بالإنسان وحذف الإنسان والإشارة إليه بلازمة من لوازمه وهي المصافحة، وكذلك الحال في تشبيه الضمائر والقلوب، ولكن بالإشارة إليه بلازمة التبسّم.

والحقّ أنّنا لا ننكر روعة الاستعارات المكنية، ولكنّ في توجيه التبعيتين دلالات لا نجد الكثير ممّن يتنبّه عليهما؛ فقد (شبّه سمَاعَ أبياتِ شِعْرِه بقادمٍ زائرٍ خفيف الظل محبوب يزور الأسماع، وحذف المشبّه به، ورمز إليه بشيء من صفات قدومه زائرًا، وهي المصافحة، وأطْلَقَ فِعْل "صَافَحَ" على طريقة الاستعارة المكنيّة. وشبّه الضمائر والقلوب بذي فَمٍ يَتَبَسَّم حين سروره بأمر ما، لكنّه حذف المشبّه به، ورمز إليه ببعض صفاته وهو التبسُّم، واستعمل فعل "تَبَسَّمَ" للدّلالة به على سرور الضّمائر والقلوب حين تستقبل عن طريق الأسماع شِعْرَه، على طريقة الاستعارة التصريحيّة)[٦٢].

ولكي نتذوق جماليّة تبعيّة فعل الشرط نقدّر وجه الشبه أولا، وهو انسيابيّة الاتصال، بمعنى انسيابيّة وصول الشعر للأسماع كما تنساب عمليّة المصافحة، وفي ذلك كناية عن سعي كلّ من الطرفين للقاء الآخر، فالأسماع تريد تلقّف الشعر، والشعر يريد الظفر بوعي هذه الأسماع، ممّا يعني براعة الشاعر في التعبير عن هذه العملية؛ بوساطة الفعل الذي جاء على زنة فاعل، ومعلوم أنّ من معاني هذا الوزن المشاركة بحدوث الفعل[٦٣]، وبحسب ذلك إشارة ودلالة على نضج الشعر وعلو شأنه لدى المتلقّي.

أمّا في تبعيّة جواب الشرط - وتحديدًا في قوله تبسّمت - فلا تقلّ براعة عمّا تقدّم؛ إذ تشبيه استئناس الضمائر والقلوب بالتبسم، ويمكن تقدير وجه الشبه هنا بالارتياح، وإذا ما وازنّا هذه الدلالة بدلالة المكنيّة - التي في قرينتها - يتبيّن أنّها الأجمل؛ فارتياح الضمائر والقلوب الذي يشابه إحساس التبسم أقرب إلى روح البيت من تشبيه كلّ منهما بالإنسان، بتوظيف ربّما لا يتحقّق بغير الاستعارة؛ التي فيها يكون (الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفيّة بادية جليّة)[٦٤]. وبهذا نرى أنّ

استعارتي البيت التبعيّتين أجمل بكثير من المكنيّتين، وأقرب لدلالاته. ومن الاستعارات التبعيّة قول عبدالله ابن المعتز(ت٢٩٦هـ)(٦٥):

جُمِعَ الحَقُّ لَنا في إِمامٍ قَتَلَ البُخلَ وَأَحيا السَماحا

توقّف الجرجاني عند الاستعارة التبعيّة، حيث تشبيه الإزالة بالقتل، وكذلك تشبيه الإذاعة بالإحياء، ومن ثمّ حَذفُ المشبّه، والتصريح بالمشبّه به في كلٍّ منهما، ممّا شكّل استعارتين تصريحيّتين(٦٦)، وهما المعنيان اللذان يمثلا ذروتي دلالات البيت.

ولكن هذا لا يدعو لصرف الاهتمام عن الاستعارتين المكنيتين، اللتين تقضيان بتشبيه كلٍّ من البخل والسماحة بالإنسان - أو أي شيء حيّ - ومن ثمّ حذفه، والإشارة إليه بلازمة من لوازمه، وهي القتل "للبخل"، والإحياء" للسماحة".

والذي نراه أنّهما لا تقلان أهميّة عن التبعيتين؛ لما لهما من عمق دلالي يكشف من أثر دلالتي التبعيتين، ولا سيّما إذا تأملنا وجه الشبه في المكنيتين، فالقتل والإحياء ليسا كالأفعال الأخرى التي يكون أثرها مرهونًا في زمن محدّد، فلو لم يقل البخل لعاش ونما وانتشر بين الناس، ولو لم تحيَ السماحة لهزلت وماتت بينهم، ممّا حقّق استغراقًا زمنيًّا في الدلالتين. وعلى وفق هذا التوجيه للاستعارة المكنية تَبْلغُ الاستعارةُ التبعيّةُ قيمة فنيّة ناضجة، بمعنى أنّ دلالة كلٍّ منهما تتمّم دلالة الأخرى. ومن قبيل ذلك قول النابغة الذبياني (ت ١٨ ق هـ)(٦٧):

فإن يكُ عامر قد قال جهلا فإنّ مطيّة الجهل السبابُ

ينبغي أن نضع نصب اهتمامنا أولا أنّ "السباب" طرف في تصوير التشبيه البليغ(٦٨)، وأنّ الجهل طرف في التصوير الاستعاري؛ بمعنى أنّ فنّ التشبيه يقوم على طرفي: السباب من جهة، ومطيّة الجهل من جهة أخرى. في حين تجري الاستعارة في لفظتي مطيّة الجهل على سبيل الاستعارة التبعّة.

ربّما يبدو للمتلقي للوهلة الأولى تشبيه الجهل بالرجل الذي يمتطي الدوابّ، فحُذف الرجل، وأشير إليه بإحدى لوازمه، وهي لفظة "المطيّة"، ممّا يعني تحقّق الاستعارة المكنيّة. بيد أنّ هذه الاستعارة تقع في قرينة التبعية، التي يحتمل السياق جريانها في لفظة المطيّة؛ بوصفها من المشتقات، أي تشبيه حالة تمكن الجهل من السباب بحالة الامتطاء.

وللموازنة بين التوجيهين يمكن القول: إنّ الاستعارة المكنيّة تعنى بدلالة تسلّط الجهل بوصفه فاعلا، وإنّ الاستعارة التبعيّة تعنى بدلالة كيفيّة التسلّط. وبذلك تكون الصورتان متمّمتين لبعضهما؛ فلا سبيل لتجاهل أيٍّ منهما. ومن الشواهد البلاغيّة المشهورة في الاستعارة قول الشاعر(٦٩):

وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ

يكاد يجمع البلاغيون العرب - الذين تناولوا هذا البيت من القدماء والمحدثين - على توجيهات الاستعارات التصريحيّة الظاهرة فحسب، فهم يرون أنّ الشاعر قد (شبّه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد: الدمع باللؤلؤ، والعين بالنرجس، والخدّ بالورد، والأنامل بالعناب؛ لما فيهنّ من الخضاب، والثغر بالبرد)(٧٠). ونَدُرَ من رأى منهم أنّ هذا البيت إنّما هو (تشبيه محض، وليس باستعارة)(٧١)؛ بحجّة أنّ الفرق بين التشبيه والاستعارة – عندهم - لا يتوقّف على ذكر الأداة أو حذفها فحسب(٧٢)، الأمر الذي لا نذهب إليه، ولا نؤيّده. أمّا الاستعارات الخمس فنحن لا نقلّل من قيمتها، وإنّما نرى للبيت قيمة فنّيّة أخرى، قد تجاوزها الكثيرون؛ إذ اشتمل على أربعة تشبيهات أخرى غير التي ذكرناها، وتحديدًا في حقلي الاستعارتين التبعيتين، في كلا الشطرين، فهو يقول: "أمطرت، وسقت" بمعنى أنّه شبّه عمليّة نزول الدمع تارة بالمطر، وأخرى بالسقي، الأمر الذي يحيلنا إلى استعارتين مكنيّتين تكمنان في قرينتي التبعيتين، ففي الأولى يشبّه صاحبة الدمع بالسحابة، وفي الأخرى يشبهها بالغمامة، فيصرّح بذكر صاحبة الدمع، وتحديدًا في الضمير تاء الفاعل العائد عليها، ويحذف كلا منهما ويشير إليهما بلازمة من لوازم كلٍّ منهما، وهما المطر للسحابة، والسقي للغمامة.

وجمال هذه الاستعارات يمكن استخلاصه من الموازنة بين صورتي "المطر والسقي"، ومعلوم أنّ المطر يصرف الدلالة لعملية وقوعه من السماء، وأنّ السقي يصرف الدلالة لأثره في الأرض؛ فهو سبب الحياة للكلأ والحرث(٧٣)، ومنه الورد الذي يدور في فلكه التصوير الاستعاري، بمعنى أنّ الشاعر وظّف المطر لصورة اللؤلؤ؛ مراعاة لمشهد وقوعه، ووظف السقي لصورة ريّ الورد؛ للدلالة على ريعانه ونظارته في خدّها. وهما الدلالتان المطلوبتان في كلا الصورتين.

ومن قبيل الاختلاف في هذه التوجيهات ما يكون في إسناد "الإضافة"، ولا سيّما في إمكانيّة جريان الاستعارة في المضاف والمضاف إليه على حدٍّ سواء، ولكنّ لكلٍّ منهما توجيهًا يخالف الآخر. ففي قولنا – مثلا - نمدح فتًى شجاعًا: "ابن الأسد". سينصرفُ تأويلنا للوهلة الأولى إلى جريان الاستعارة التصريحيّة في لفظة "الأسد"؛ بوصفها تقوم على تشبيه أب الفتى بالأسد، وحذفه والتصريح بالمشبّه به الأسد.

ولكن لو عدنا إلى دلالة المديح: أهو خاصّ بالفتى أم بأبيه؟. في تأمّلنا الجواب سنعود من غير شكّ إلى دلالة التركيب، وسنقرّر إمكانيّة جريان الاستعارة في المضاف، أي لفظة "ابن"، بمعنى تشبيه الفتى بابن الأسد – أي : الشبل- وحذف الفتى، والتصريح بلفظ المشبّه به، فيكون الأب خارج التوظيف الاستعاري أصلا. وبهذا يكون جريان الاستعارة في لفظتي المضاف والمضاف إليه احتمالين واردين على حدٍّ سواء.

وللموازنة بينهما لنا أن نتأمل دلالتيهما، وتحديدًا التعبير عن "الشبل" بوساطة فنّ الكناية عن الموصوف، وربّما كان لحداثة سنّ الفتى أثر في توجيه الدلالة؛ فلو قولنا هذا شبل لأقتصر المديح على حقبة زمنيّة محدّدة بعمر الشبل، بمعنى أنّ مديحنا لا يتجاوز المرحلة العمريّة التي يعيش فيها الفتى، كما هو الحال في احتمال مديح أبيه بتشبيهه بالأسد. أمّا قولنا بأنّه "ابن الأسد" ففيه انفتاح للدلالة على مرحلة عمريّة لاحقة، بمعنى أنّه الآن

شبل، وسيكون غدا أسدًا، وبهذا سيتحقّق استغراق زمنيّ في المديح، على عكس ما تقدّم، الأمر الذي يجعلنا نرجّح جريان الاستعارة في المضاف.

ومن الاستعارات، التي أسندت للإضافة قول علي بن الجهم (ت٢٤٩هـ)(٧٤):

عُيُونُ المَهَا بَيْنَ الرُّصَافةِ والجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أدْرِي ولا أدْرِي

شاع عند العرب تشبيه عيون الحسناء بعيون المها، وشاع أيضًا حذف عيون الحسناء ممّا يجعل التشبيه يجري في الاستعارة التصريحيّة، وتحديدًا في مطلع هذا البيت، على سبيل الإسناد للإضافة. وإذا تأمّلنا طرفي التشبيه فإنّ تكرار لفظة "العيون" في كلا الطرفين ربّما يصرف المتلقّي للوهلة الأولى إلى تأمّل الاستعارة في المضاف إليه "المها"؛ بداعي تشبيه الحسناء بها، ولكن إذا تأمّلنا وجه الشبه فيهما فلا نجد سوى جمال العيون في كلٍّ، ممّا يجعلنا نعود سريعًا إلى تأمّل الاستعارة في لفظة المضاف "عيون"؛ بمعنى تشبيه العيون بالعيون، فيتبع المضافُ إليه المضافَ في كلٍّ من الطرفين؛ لأنّ المضاف والمضاف إليه - من جهة المعنى - بمنزلة شيء واحد(٧٥).

الخاتمة :

وختامًا يمكن أن نوجز أهم ما توصلتْ إليه دراستنا من نتائج، وكما يأتي:

تكاد تجري الاستعارات المكنيّة في توجيه واحد، بمعنى أنّ ذائقة البلاغيين كثيرًا ما تجاوزت دلالات أخرى يحتملها السياق، في حين يمكن أنْ توجّه الاستعارة بأنّها تصريحيّة، وليست مكنيّة؛ على افتراض أنّ اللفظة التي جرت فيها إنّما هي مشبه به وليس مشبّهًا. وبناء على ذلك توجّه لازمة الاستعارة المكنيّة بأنّها قرينة الاستعارة التصريحيّة – التي افترضناها-فهي التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي.

إنّ ما يجري في تحديد دلالة اللفظ بعد دخوله في السياق يجري على تحديد توجيه الاستعارة التبعيّة، أو ما يجري في قرينتها من استعارة مكنيّة.

وجد البحث أنّ الاستعارة المكنيّة التي تكون في قرينة التبعيّة عادة ما تأخذ اهتمام الدارسين، على حساب اهتمامهم بالاستعارة التبعيّة نفسها؛ وربّما يكون السبب في ذلك أنّ الاسم الجامد أقرب إلى الذوق العربي من سواه في تجسيد علاقة المشابهة.

وجد البحث أنّ من أسباب تراجع توجيه الاستعارة التبعيّة أنّها تُجرّد عند كثير من البلاغيين من الفاعل، بمعنى أنّ الفعل الذي تجري فيه الاستعارة يعدّ معبّرًا عن مصدره فحسب، وبذلك لا تخرج الاستعارة عن فلك الاسم.

وجد البحث أنّ طبيعة الاستعارة ينبغي توجيهها بما يفرزه السياق من دلالات، وليس بالقوانين التي وضعت لها - على وفق ما يطالعنا في مصنفات البلاغيين - بل ربّما تكون هذه القوانين عاجزة في بعض الأحايين عن تفسير بعض الاستعارات، ومن ثمّ توجيهها.

ينبغي الوقوف على بعض مباحث النحو التي من شأن دلالتها أن توجّه بعض الاستعارات، ومن ذلك إسناد المضاف للمضاف إليه. وكذلك الحال في بعض مباحث اللغة، ومن ذلك المشترك اللفظي.

الهوامش

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق علي محمّد البجاوي، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسة دار الكتاب الحديث للطبع والنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ص٢٤٩.

(٢) مفتاح العلوم، للسّكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص٣٦٩.

(٣) ينظر: فلسفة البلاغة، د. رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، ص٣٣٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ)، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ج٣، ص١٥٤.

(٦) التشبيه المقلوب: هو جعل المشبّه في مكان المشبّه به؛ بادّعاء أنّ المشبّه أكمل في وجه الشبه من المشبّه به على وجه المبالغة. ينظر: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٣٤٥.

(٧) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ص١٥٣.

(٨) المفضّليّات، المفضّل الضبّي (ت١٦٨هـ)، تحقيق أحمد محمّد شاكر، وعبد السلام محمّد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ص٤٢٢. وديوان الهذليين، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٣.

(٩) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ٢٠٠٥م،٣/٥٢١.

(١٠) ينظر: مفتاح العلوم ٣٧٩.

(١١) الموازنة بين الطائيّين أبي تمام والبحتري، الآمدي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٤، ج١، ص٢٦٨.

(١٢) البلاغة والأسلوبيّة د. محمد عبد المطلب، الشركة المصريّة العالميّة، لونجمان، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٠٨.

(١٣) البلاغة الاصطلاحيّة، د. عبدة عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٦٦.

(١٤) ينظر: الصورة الأدبيّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨١م، ص٣.

(١٥) البلاغة والأسلوبيّة ٢٣٨.

(١٦) سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجيّ (ت٤٦٦هـ)، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٢م، ص١٢٥.

(١٧) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط٣، ١٩٩٣م، ص٢٧٣.

(١٨) ديوان أبي الطيّب المتنبّي، تحقيق د. عبد الوهاب عزّام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص١٠٣.

(١٩) المصدر نفسه ١٨٦.

(٢٠) ينظر: البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنّكة، دار القلم بدمشق، ودار الشاميّة، ببيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢١) ينظر: الصورة البيانيّة في الموروث البلاغي، د. حسن طبل، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٥٠.

(٢٢) الكامل في اللغة والأدب، أبو العبّاس المبرّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٨٩.

(٢٣) ينظر: المصدر نفسه.

(٢٤) ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزيّ (ت٥٠٢هـ)، تحقيق محمّد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ج١، ص٤٠.

(٢٥) ينظر: الصورة الأدبيّة ١٨.

(٢٦) الاستعارة المرشحة: التي (قرنت بما يلائم المستعار منه) أي المشبّه به. معجم المصطلحات البلاغيّة ٩٢.

(٢٧) الاستعارة المجرّدة: (إذا عقبت بصفات ملائمة للمستعار له) أي المشبّه. المصدر نفسه ٩٠.

(٢٨) قرينة الاستعارة لا تعدّ من الملائمات، لذا لا يعتدّ بالترشيح ولا بالتجريد إلا بعد تمام الاستعارة، واستيفاء قرينتها. ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهريّة للتراث، ج١، ص١١٦.

(٢٩) ديوان أبي تمّام ٣٢٤/٢.

(٣٠) ينظر: الموازنة ٢٦١/١.

(٣١) الموطّأ، مالك بن أنس بن مالك المدني (ت١٧٩هـ)، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسّسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيريّة، أبو ظبي، الإمارات، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٠٦..

(٣٢) الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمّد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤هـ)، تحقيق محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٦٢.

(٣٣) علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٧٢.

(٣٤) يمكن حمل الصرع على معنى الفعل "صرع" إي غلب. الأمر الذي لا نذهب إليه؛ لبعده عن دلالة السياق.

(٣٥) المشترك اللفظي: أن يؤدي اللفظ أكثر من معنى. ينظر : اللغة العربيّة معناها ومبناها، تمام حسّان عمر، عالم الكتب، ط٥، ٢٠٠٦م، ص٥٤٢.

(٣٦) يقال: (رجل كثير الكلام، والكَلْمُ: الجُرْحُ، والجمع كلوم، وكِلام). لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، لبنان، بيروت، ج١٢، ص٥٢٤.

(٣٧) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمّد يوسف نجم، دار بيروت، ١٩٨٠م، ص٨٣.

(٣٨) ينظر: لسان العرب ٤٥٠/١١.

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) الصورة الأدبيّة ١٢.

(٤١) السياق وأثره في المعنى، د. المهدي إبراهيم الغول، أكاديميّة الفكر العربي الجماهيري، دار الكتب الوطنيّة، بنغازي، ليبيا، ٢٠١١م، ص٨٥.

(٤٢) المنهاج الواضح للبلاغة ٢٣٢/٣.

(٤٣) البلاغة والأسلوبيّة ٢٣٥.

(٤٤) الصورة البيانيّة في الموروث البلاغي ١٥١.

(٤٥) مفتاح العلوم ٣٨٠. وينبغي التنويه هنا إلى أنّنا صرفنا اهتمامنا عن الاستعارة التبعيّة، التي تكون في الحروف؛ لأنّها بعديدة - نسبيًا - عن موضوع بحثنا.

(٤٦) ينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشميّ (ت١٣٦٢هـ)، قدّمه د. يحيى مراد، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٤٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٤٤

(٤٨) سورة مريم، من الآية ٤.

(٤٩) الموازنة ٢٦٩/١.

(٥٠) ينظر: السياق وأثره في المعنى ٨٧.

(٥١) البلاغة الاصطلاحيّة ٦٥.

(٥٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٩٩١م، ص٥١.

(٥٣) بغية الإيضاح ٥٠٣/٣.

(٥٤) البلاغة الاصطلاحية ٦٨.

(٥٥) سورة الأعرف ١٥٤.

(٥٦) السياق وأثره في المعنى ٨٨.

(٥٧) ديوان دعبل الخزاعي، شرحه حسن حمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٠٦.

(٥٨) ينظر: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ٣٢١.

(٥٩) الكناية: (أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه) دلائل الإعجاز ٦٦.

(٦٠) البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ٢٤٩/٢.

(٦١) ديوان السريّ الرفّاء، تقديم وشرح كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٦.

(٦٢) البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ٢٤٩.

(٦٣) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، ط١٥، ج٢، ص ١٦٦.

(٦٤) أسرار البلاغة ٤٣.

(٦٥) شعر ابن المعتز، صنعه أبو بكر الصوليّ (ت٣٣٥هـ)، تحقيق د. يونس السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهوريّة العراقيّة، ١٩٧٨م، ج٢، ص٢٦٩.

(٦٦) ينظر: أسرار البلاغة ٥٣.

(٦٧) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م، ص٨٣. أورد بعضُ القدماء هذا البيت بلفظ "الشباب" بدل "السُباب"، الأمر الذي نراه بعيدًا - نسبيًا - عن دلالة البيت. ينظر: الموشّح ٣٢٢، وينظر: كتاب الصناعتين ٢٩٤. وينظر: ديوان النابغة الذبياني، بتحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ص ١٠٩.

(٦٨) التشبيه البليغ: (هو التشبيه الذي يُحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه). معجم المصطلحات البلاغيّة ٣٣٠.

(٦٩) البيت يُنسب ليزيد بن معاوية (ت٦٤هـ)، والأرجح أنّه للوأواء الدمشقي (ت٣٣١هـ)، ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٠م، ص٨٤.

(٧٠) كتاب الصناعتين ٢٥١. وينظر: جواهر البلاغة ٢٤٧. وينظر: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ٢٧٢.

(٧١) سرّ الفصاحة ١١٩.

(٧٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٧٣) ينظر: لسان العرب ٤٠١/٨ .

(٧٤) ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٤١.

(٧٥) ينظر: النحو الوافي ٣١٦/٣..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

-أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٩٩١م.

-الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ)، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.

-البلاغة الاصطلاحيّة، د. عبدة عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.

-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ٢٠٠٥م.

-البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

-البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنّكة ، دار القلم بدمشق، ط١، ١٩٩٦م.

-جواهر البلاغة، أحمد الهاشميّ (ت١٣٦٢هـ)، قدّمه د. يحيى مراد، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.

-سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجيّ (ت٤٦٦هـ)، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٢م.

-السياق وأثره في المعنى، د. المهدي إبراهيم الغول، أكاديميّة الفكر العربي الجماهيري، دار الكتب الوطنيّة، بنغازي، ليبيا، ٢٠١١م.

-شعر ابن المعتز، صنعه أبو بكر الصوليّ (ت٣٣٥هـ)، تحقيق د. يونس السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهوريّة العراقيّة، ١٩٧٨م.

-الصورة الأدبيّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨١م.

-الصورة البيانيّة في الموروث البلاغي، د. حسن طبل، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١، ٢٠٠٥م.
-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمّد شاكر، الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٠م.
-ديوان أبي الطيّب المتنبّي، تحقيق د. عبد الوهاب عزّام، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
-ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمّد يوسف نجم، دار بيروت، ١٩٨٠م.
-ديوان أبي تمّام بشرح التبريزيّ (ت٥٠٢هـ)، تحقيق محمّد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط٥.
-ديوان السريّ الرفّاء، تقديم وشرح كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
-ديوان النابغة الذبياني، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
-ديوان النابغة الذبياني، تحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.
-ديوان الهذليين، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
-ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٩٥٠م.
-ديوان دعبل الخزاعي، شرحه حسن حمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
-ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
-علم أساليب البيان، غازي يموت، ط١، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٠م.
-علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلميّ، لبنان، ط٣، ١٩٩٣م.
-الكامل في اللغة والأدب، أبو العبّاس المبرّد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق علي محمّد البجاوي، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسة دار الكتاب الحديث للطبع والنشر والتوزيع، الكويت، ط٢.
-لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، لبنان، بيروت.
-اللغة العربيّة معناها ومبناها، تمام حسّان عمر، عالم الكتب، ط٥، ٢٠٠٦م.
-مفتاح العلوم، للسّكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.
-معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٧م.
-المفضّليّات، المفضّل الضبّي (ت١٦٨هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، وهارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦.
-الموازنة بين الطائيّين أبي تمام والبحتري، الآمدي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، ط٤.
-المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهريّة للتراث.
-الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمّد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤هـ)، تحقيق محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

-الموطّأ، مالك بن أنس بن مالك المدني (ت١٧٩هـ)، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسّسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيريّة، أبو ظبي، الإمارات، ط١، ٢٠٠٤م.
-النحو الوافي، عباس حسن، دار المعاف، القاهرة، ط١٥.